مجلة إشكالات في اللغة والأدب مجلد: 09 عدد: 2 السنة: 2020
ص: 463 - 478 E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

الحجج شبه المنطقية في طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد للكواكبي

Quasi-logical arguments in the natures of tyranny and demise slavery to el kawakebi

[*] أ. رميساء مزاهدية
romaissa mezahdia

جامعة محمد خيضر بسكرة، الجزائر
University of Biskra- Algeria
romaissa.mezahdia@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2019/12/01	تاريخ القبول:2020/01/21	تاريخ النشر: 2020/06/02

ملخص البحث

تسعى هذه الدراسة التطبيقية إلى الكشف عن طبيعة اشتغال أنواع الحجج شبه المنطقية في خطاب طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد للكواكبي، وتبيان مدى قدرتها على استمالة المخاطَب وإشراكه في استنتاج المقاصد عن طريق اعمال الفكر ودفعه إلى تقبل النتائج.

وجاءت هذه الدراسة لتقصي طبيعة اشتغال الحجج شبه المنطقية اعتمادا على رؤية كل من (بيرلمان) و (تيتيكاه) في كتابهما الموسوم بـ (مصنف في الحجاج الخطابة الجديدة)، مزيلة اللثام عن إشكالية مفادها كيف تم توظيف أنواع الحجج شبه المنطقية في خطاب طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد لاستمالة المتلقي؟ وفيما تتجلى قوتها الإقناعية؟

الكلمات المفتاح: حجج شبه المنطقية، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، كواكبي.

Abstract :

This applied study seeks to reveal the nature of the work of the types of quasi-logical arguments in the speech of the natures of tyranny and the gladiator of slavery of the planets, and to show the extent of its ability to woo the addressee and involve him in the conclusion of purposes through the realization of thought and to accept the results.

The study came to investigate the nature of the work of quasi-logical arguments based on the vision of (Perelman) and (Tyteca) in their book entitled (classified in the new rhetoric pilgrims), removing the problem of how to use the types of quasi-logical arguments in the discourse of

[*] رميساء مزاهدية. romaissa.mezahdia@gmail.com

authoritarian natures and wrestler Enslavement to woo the receiver? What is its persuasive power?
Keywords: Quasi-logical arguments, the natures of tyranny and demise slavery to el kawakebi.

مقدمة:

تعدّ اللغة وسيلة تواصل بين الأفراد، فهي تميز الإنسان عن غيره، فهو يفكر بها، يتحدثها، ويكتبها وكل ذلك في سياقات كثيرة ومختلفة، تتطلب أن يكون المتكلم مخاطبا، محاججا، مدافعا عن لبنات أفكاره، مستخدما في خطابه أنواعا من الحجج، بغية إيصال الأفكار إلى المتلقي للتأثير فيه ودفعه إلى إنجاز فعل معين من خلال إشراكه في استنباط مقاصد الحجاج، فتكون الحجج بذلك وسيلة لاستدراج المتلقي، وربطه دائما بالقضية الحجاجية بدءا بالمقدمات وصولا إلى النتائج، بغية إقناعه بمصداقية القضية، وهذا ما يحيلنا إلى الدور الفعال الذي تلعبه الحجج على اختلاف أنواعها لاستمالة المتلقي.

جاءت هذه الدراسة لتقصي طبيعة اشتغال الحجج شبه المنطقية اعتمادا على رؤية كل من(بيرلمان) و(تيتيكاه) في كتابهما الموسوم بـ(مصنف في الحجاج الخطابة الجديدة)، مزيلة اللثام عن إشكالية مفادها كيف تم توظيف أنواع الحجج شبه المنطقية في خطاب طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد لاستمالة المتلقي؟ وفيما تتجلى قوتها الإقناعية؟

حري بنا قبل أن نستنطق طبيعة اشتغال أنواع الحجج شبه المنطقية في طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد أن نقدم قراءة في التكوين الحجاجي للكواكبي وفي منطلقات مضامين المدونة:

أولا– قراءة في التكوين الحجاجي للكواكبي وفي منطلقات مضامين كتاب طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد:

1–1 قراءة في التكوين الحجاجي للكواكبي:

مما لا شك فيه أنّ "العمل صورة لصاحبه، ولا يندّ الخطاب عن هذا الحكم بوصفه عملا. فذات المخاطِب سمة تميّز خطابه عن خطابات مماثلة أو محاقلة، فيغدو الخطاب سمة شخصيّة تتبلور في ظاهره وفي باطنه"[1] ولفحص خطاب الكواكبي حرّي بنا أن نبتدئ بتكوينه الّذي سوف

يسهم في إزالة الستار والكشف عما يتضمنه خطابه من حجج تجلت في مواقفه وفي معالجته للعديد من القضايا. فمن هو الكواكبي؟

"الكواكبي (1849م، 1902م) مفكر وعلامة سوري رائد من رواد التعليم ومن رواد الحركة الإصلاحية العربية وكاتب ومؤلف ومحامي وفقيه شهير"[2] ينتسب لأسرة حلبية عريقة في حلب وتلقى تعليمه فيها كما يتعلم أبناء عصره في مدرسة الأسرة (المدرسة الكواكبية) بحفظ القرآن وتعلم اللغة والدين والفقه، وليل في نفسه للمعلومات الدقيقة، اهتمَّ الكواكبي بدراسة الرياضيات والعلوم الطبيعية وعند بلوغه سن المراهقة رحل إلى أنطاكية لإكمال تعليمه، وكان يتقن إلى جانب اللغة العربية اللغتين التركية والفارسية، وقد كان لتنوع ثقافته ثراء كبير في فكره السياسي والديني[3]. وقد أسس عدة جرائد سلكت مسلكا حرا في معالجة القضايا العامة للدفاع عن حقوق الضعفاء والتنديد بالظلم والطغيان ومكتبا حتى لقب بأبي الضعفاء.

إلا أن السلطة العثمانية المستبدة كانت تقف في وجه طموحاته وتعرقل أعماله بمصادرة الصحف والتضييق عليه حتى لا ينير عقول العامة.

وتوالي هذه الممارسات جعلته يتيقن أنّه لا يمكن القيام بأي إصلاح في نظام الحكم الاستبدادي، لذا قرر مغادرة حلب متجها إلى مصر هروبا من الظلم والاستبداد الذي عرفته البلاد في عهد السلطان (**عبد الحميد الثاني**)، كما أنه غادر مصر متوجها إلى السودان فالحبشة ثم سواحل افريقيا الشرقية حتى جزيرة زنجبار، ثم سواحل آسيا الغربية حتى بلاد الهند مارا بجنوب الجزيرة العربية، وعند العودة اتجه نحو مكة المكرمة في موسم الحج وقد زار كذلك شبه الجزيرة العربية وهذا في رحلتين منفصلتين، تمكن من خلالهما على الاطلاع على أوضاع المسلمين، بالاتصال بأهلها وشخصياتها العلمية والدينية، وهذا ما زاد في تعميق ثقافة الكواكبي وثراء فكره والذي يظهر جليا في انتاجه الذي يتميز بالعمق والاتزان والواقعية، لأنّ هذه الرحلات كانت بمثابة البحث الميداني في أحوال المسلمين وجمع المادة اللازمة لإنجاز أعماله من خلال المعلومات التي كان يدونها[4].

فألف العديد من الكتب إلى جانب طبائع الاستبداد منها " أم القرى، العظمة لله وصحائف قريش، وقد فقد مخطوطان مع جملة أوراقه ومذكراته ليلة وفاته"[5] وما ينبغي الإشارة إليه أن كتاب

طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد كان خلاصة بحث وتفكير مدة (**30 عاما**)كما ذكر في مقدمة كتابه.

وقد دفع (**الكواكبي**) الثمن غاليا سيما على كتاب طبائع الاستبداد حيث توفي في القاهرة "متأثراً بسم دس له في فنجان القهوة (**عام1320هـ الموافق 1902م**)، حيث دفن فيها، رثاه كبار رجال الفكر والشعر ونقش على قبره بيتان (لحافظ إبراهيم) يقول فيهما (من الطويل):

هُنَا رَجُلُ الدُّنْيَا هُنَا مَهْبَطُ التُّقَى *** هُنَا خَيْرُ مَظْلُومٍ هُنَا خَيْرُ كَاتِبِ

قِفُوا وَأَقْرَؤُوا أُمَّ الْكِتَابِ وَسَلِّمُوا *** عَلَيْه فَهَذَا الْقَبْرُ قَبْرُ الْكَوَاكِبِي

1-2- قراءة في المنطلقات والمضامين الفكرية العامة وأهم تصوراته في فحوى كتاب طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد:

كان (**الكواكبي**) موسوعي الاطلاع "على الكتب التي حفلت بها المكتبة الكواكبية لاسيما التاريخ والاجتماع والفلسفة والسياسة واللغة والأدب، وقد انعكست هذه الموسوعية على كتابه طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد فآتى عميقا في معناه ومبناه، قويا في حجته، شاملا في طرحه، واضحا جليا في مساره، ناصعا في برهانه، سلسا في منطقه، وكأن الكواكبي قد كتبه للأيام التي جاءت بعده، والتي نعيشها الآن، والتي ستعقب عيشنا هذا"[6] وهذا ما يجعل الكتاب في موضوعه ولغته سيظل يقرأ إلى قيام الساعة، فلا الاستبداد سيموت كاملا، ولا الحاجة إلى مقاومته ستخمد أبدا وهذا ما خطّه (**الكواكبي**) في كتابه وهو يعبر عن حال المشرق الإسلامي بدمه وعقله ووجدانه من وحي ما قرأ وطالع، وما عاش وخبر، وما سمع ووعى، سطورا مسبوكة عميقة، كل جملة فيها وحدة كاملة للمعنى بها حكم ونماذج وأقوال مصنوعة بعناية ومنحوتة بروية مشخصة أصل الداء ودواؤه الثمين، فالكتاب "عبارة عن مجموعة من المقالات في نقد الحكم الاستبدادي كان قد نشرها في الصحف المصرية ثم جمعها فيه، ويبدو فيه متأثرا بالفكر الأوروبي الحديث وخاصة (**بمونتسكيو**) في كتابه (**روح القوانين**) الذي ترجم إلى اللغة العربية في ذلك الوقت"[7]

استهل كتابه بتعريف جامع مانع للاستبداد، ثم تعقب آثاره وانعكاساته في مجالات متعددة فخصص مقالات وهي على التوالي:

الاستبداد والدين، الاستبداد والعلم، الاستبداد والمجد، الاستبداد والمال، الاستبداد والأخلاق، الاستبداد والتربية، الاستبداد والترقي، وكذا تأثير كل هذا على رعية المستبد، ثم يختم بوضع مقترح

للتخلص من هذا الداء العضال وإيجاد الترياق له وسمّه بـ الاستبداد والتخلص منه ليخرج بحلول لاقتلاع هذا الداء الدافين تنفع كل من الرّاعي الذي يريد أن يتجنب الوقوع في فخ الاستبداد مع رعيته، وتزود الرعيّة بطرق مقاومة ومناقضة المستبدين للتطلع للعيش في غد أفضل.

سأحط رحالي مباشرة للتعرض إلى بعض أنواع الحجج شبه المنطقية واستنطاقها مباشرة من المدونة:

ثانيا: الحجج شبه المنطقية:

هي الحجج التي أخذت من المنطق بنيته وقبولها للصياغة المنطقية؛ وافترقت عنه في كونها غير ملزمة " أي أنها لا تلزم المرسل إليه بدعوى ونتيجة الحجاج"[8] كما هو الحال في الحجج المنطقية "التي تجبر المرسل إليه على تقبّل النتيجة"[9]، وتستمد "الحجج شبه المنطقية قوتها الاقناعية من مشابهتها للطرائق الشكلية والمنطقية والرياضية في البرهنة"[10] وهذا ما يمنحها قالبا منطقيا شكليا، تجمع فيه " المعطيات وتكيّف، فتجعلها شبيهة باستدلال منطقي صارم، فما يميزها إذن حقيقتها اللاشكلية التي تجتهد في كونها شكلية أو تعدّل وتبدّل لتكون كذلك"[11] من خلال اعتمادها على البنى المنطقية، مثل التناقض وعدم الاتفاق، والتماثل، كما تعتمد أيضا على العلاقات الرياضية مثل علاقة الجزء بالكلّ وعلاقة الاحتمال، ولهذا تنقسم الحجج شبه المنطقية إلى قسمين أساسين هما:

1- الحجج شبه المنطقية التي تعتمد البنى المنطقية/ ومن أشكالها:

1-1 التناقض وعدم الاتّفاق أو التعارض:

إن المقصود بالتناقض في الخطاب الحِجاجي هو عدم الاتفاق، إذ يقدم الحِجاج "أطروحة ما مبينا أنها لا تتفق مع أخرى"[12]؛ ويُعتمَد هذا النوع من الحجج من أجل إبراز قضيتين متناقضتين في خطاب ما إحداهما صحيحة والأخرى خاطئة، لدفع المخاطَب إلى الميل للصحيحة وإقصاء الخاطئة، وبالتالي يصل إلى النتيجة المرجوة من الحِجاج، فيتحقق بذلك مبدأ الاستمالة والإقناع[13].

ينبغي الإشارة إلى أن الحجج المختارة على اختلاف أنواعها لها ارتباط وثيق بالنتائج المقصودة، لهذا يستلزم تمييزها عن النتيجة بإشارة خاصة، تتمثل في وضع خطين أسفل النتيجة (ـــــ)، أما الحجة فيدل عليها خط أسفلها (____).

ومن نماذج حجة التناقض وعدم الاتفاق التي أوردها الكواكبي، نذكر على سبيل المثال لا الحصر:

- ✓ **" الاستبداد لا يقاوم بالشدة إنّما يقاوم باللين والتدرج"[14].**

في فصل (الاستبداد والتخلص منه) يحتج الكواكبي في مبحث السعي لرفع الاستبداد بحجة عدم مقاومة الاستبداد بالشدة وهو نقيض اللين والتدرج، فيضع المتلقي أمام الأمرين المتناقضين؛ أولهما (أن الاستبداد لا يُقاوم بالشدة) وثانيهما (يُقاوم باللين والتدرُّج) فيدفعه إلى دحض القضية الخاطئة وتقبل القضية الصحيحة المتمثلة في مقاومة الاستبداد باللين والتدرج وإقناعه بالعمل وفقها.

- ✓ **" هل خلق الله لكم عقولا لتفهموا به [ها] كل شيء أم لتهملوه [ها] كأنه [ها] لا شيء"[15].**

يخاطب (**الكواكبي**) في فصل (الاستبداد والترقي) القوم ويضعهم أمام المتناقضين؛ إذ إن الله خلق لهم عقولا ليفهموا بها كل شيء إلاّ أنهم أهملوها كأنها لا شيء. يهدف الكواكبي إلى تفنيد هذه القضية الخاطئة ودفعهم إلى إعمال عقولهم في ملكوت السماوات والأرض من باب اللوم الإرشادي.

1-2 حجة التماثل والحدّ في الحجاج:

يقوم هذا النوع من الحجج على مبدأ التماثل " إذ يعمد المحتج لفكرة إلى التعريف وضبط الحدود"[16] بين العنصر المعرِّف والعنصر المعرَّف إلا أن ما يقدمه من تعريفات "لا تنتمي البتة إلى نظام شكلي بل تدعي قيامها بدور الضّبط والتحديد رغم افتقارها إلى الدّقّة والوضوح "[17] "فالمخاطِب يقصد الاستعانة بالتعريفات وضبط الحدود في طريقتها الشكلية لتقويم المفاهيم تقويما إيجابيا أو سلبيا في ذهن المخاطَب، ودفعه إلى إعمال الفكر فيما يُعرض عليه لتقبّله أو ردّه، تبعا للقيمة الدلالية لتلك التعريفات من باب تحصيل الحاصل"[18].

عمد (**الكواكبي**) إلى توظيف هذا النوع من الحجج القائمة على تعريف المفاهيم رغبة منه في توضيح مفهوم موضوع ما للمخاطَب، بغرض التوافق معه "على أسس مشتركة بهدف إقناعه بشكل أفضل"[19]؛ فسعى من خلال خطابه إلى تقديم تعريفات تتمحور حول موضوع الاستبداد وعلاقته بمجالات متعددة لترسيخها وتمكين المخاطَب من معرفتها من جهة، ومن جهة أخرى لأن " التعريف يمارس سلطته لكونه صعب التفنيد"[20]، إذ إن (**الكواكبي**) استثمر بداهته

وبساطته لإقناع المخاطَب بما يليه، ولا يخلو فصل من فصول كتاب (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) من هذا النوع من الحجج نورد منها:

- ✓ **"المجد هو إحراز المرء مقام حبٍّ واحترام في القلوب، وهو مطلب طبيعي لكلِّ إنسان، لا يترفَّع عنه نبيٌّ أو زاهد، ولا ينحطُّ عنه دنيٌّ أو خامل"**[21].
- ✓ **" التمجد هو أن ينال المرء جذوة نار من جهنم كبرياء المستبدِّ ليحرق بها شرف المساواة في الإنسانية"**[22]

هذه الأمثلة وغيرها تعتمد على تعريف المفاهيم من قبل المخاطِب من أجل توضيحها للمخاطَب ومن ثم إقناعه بما يصبو إليه، فالفهم طريق الإقناع لا محالة لأن أهم عناصر الحجاج هو الفهم والإفهام، فلا يمكن أن يكون هناك إقناع ما لم يمكن هناك فهم للخطاب، وهذا ما يقوم به التعريف فهو يقوم بتوضيح وتحديد ماهية الشيء بتعريف حده ومن ثم إقناع المخاطَب بالمقاصد التي وُظف من أجلها.

كما يرمي (**الكواكبي**) من خلال توظيف هذا النوع من الحجج إلى دفع المخاطَب إلى تقويم المفاهيم تقويما إيجابيا أو سلبيا "تبعا لقدراته الذهنية وللقيم الدلالية التي تقدمها تلك الحجج "[23] من قبيل تحصيل الحاصل في مقامات بالغة الخصوصية؛ لأنّه لا يمكنه استنباط " دلالتها الحجاجية إلاّ في مقام بعينه فهذا المقام هو الذي يعطي لهذه العبارات دلالتها المخصوصة"[24].

ومن حجج التماثل التي وظفها الكواكبي في كتاب (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) نسوق النماذج الآتية:

- ✓ **"والنتيجة أنَّ وزير المستبدّ هو وزير المستبدّ "**[25].

هذا التعريف يفتقر إلى الدقة والوضوح فقد يفهم المخاطَب من وزير المستبد أنّه ذلك المتخلق بالخير حقيقة، وبالشر ظاهرا فيخدع المستبدّ بأعماله ولكنه في حقيقته يودّ نصرة الأمة وإنقاذها من الاستبداد، كما قد يحيل إلى اللئيم الأعظم في الأمة الذي يريد بها كل سوء ولا يمكن أن تتوفر فيه خصال التقوى، العدل، الحكمة، المروءة، والشفقة. فهو يعلم أن الأمة تبغضه وتمقته وتتوقع له كلَّ سوء، فهو حريص على بقاء الاستبداد مطلقا وعلى موازرة المستبد ليشاركه في استدرار دماء الرعيّة والتنكيل بها لتبقى يديه مطلقة في الأموال.

هذا التعريف يفتقر إلى الدقة والوضوح فقد يفهم المخاطَب من وزير المستبد أنّه ذلك المتخلق بالخير حقيقة، وبالشر ظاهرا فيخدع المستبدّ بأعماله ولكنه في حقيقته يودّ نصرة الأمة وإنقاذها من الاستبداد، كما قد يحيل إلى اللئيم الأعظم في الأمة الذي يريد بها كل سوء ولا يمكن أن تتوفر فيه خصال التقوى، العدل، الحكمة، المروءة، والشفقة. فهو يعلم أن الأمة تبغضه وتمقته وتتوقع له كلَّ سوء، فهو حريص على بقاء الاستبداد مطلقا وعلى موازرة المستبد ليشاركه في استدرار دماء الرعيّة والتنكيل بها لتبقى يديه مطلقة في الأموال.

يهدف (**الكواكبي**) من خلال هذه الحجة إلى دفع المخاطَب إلى تقويم مفهوم وزير المستبد تقويما إيجابيا أو سلبيا، إلاّ أن الكواكبي يقصد من خلال هذه العبارة التقويم السلبي للوزير لينبه الرعيّة بحقيقته ويدفعهم إلى النفور منه وعدم الوثوق به وهذه الدلالة الحجاجية نستنبطها من العبارات السياقية الواردة بكثرة في خطاب الكواكبي نذكر منها " الوزير الأعظم للمستبدّ هو اللئيم الأعظم في الأمة"[26] وأيضا قوله: " كيف يجوز تصديق الوزير والعامل الكبير الذي قد ألف عمرا كبيرا لذة البذخ وعزّة الجبروت في أنَّه يرضى بالدخول تحت حكم الأمّة، ويخاطر بعرض سيفه عليها فتحلّه أو تكسره تحت أرجلها. أليس هو عضوا ظاهر الفساد في جسم تلك الأمة"[27].

- ✓ "**والحاصل أن المجد هو المجدُ محبَّبٌ للنفوس، لا تفتأ تسعى وراءه وترقى مراقيه، وهو ميسَّر في عهد العدل لكلِّ إنسان على حسب استعداده وهمَّته، وينحصر تحصيله في زمن الاستبداد بمقاومة الظلّم على حسب الإمكان**"[28]

فللدّعوة إلى أن يعيش الإنسان حياة طبيعية شريفة وللاحتجاج لوجوب السعي لنيل المجد يؤكّد (**الكواكبي**) أنّ المجد قيمة ثابتة لا تتغير في النفوس فيعرف المجد بالمجد وهو تعريف يسعى إلى ترك الأثر في نفس المخاطَب وإقناعه بضرورة العمل لتحصيله كيفما كانت الأوضاع.

1-3 الحجة القائمة على العلاقة التبادلية

تتأسس هذه الحجة على تطبيق مبدأ العدل بين وضعيّتين أو ملفوظين متماثلين، وإن بطريقة غير مباشرة والغاية من ذلك أثناء الحجاج هو وضع المخاطَب "بين أمرين يشدّان انتباهه وتركيزه ويوجّهانه إلى المقصود من الحجاج، معتمدا في ذلك على السياق المحيط"[29] بغية " معالجة وضعيتين إحداهما بسبيل من الأخرى معالجة واحدة"[30]، إذ قد تقابل هذه المعالجة بين الوضعيتين بحجج عكسية أو عن قلب وجهات النظر.

وتوضيحا لهذه القضية نسوق نماذج من الحجج القائمة على العلاقات التبادلية التي تم توظيفها في كتاب (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) وهي كالآتي:

- ✓ **"ليس بين صغيركم وكبيركم غير برزخ من الوهم، لو درى الصغير بوهمه، العاجز بوهمه، ما في النفس الكبير المتآله من الخوف منه لزال الإشكال وقضى الأمر الذي فيه تشقون"**[31].

ماثل (**الكواكبي**) بين وضعيتين متعاكستين، وضعية الصغير الواهم بالعجز، ووضعية الكبير الذي يدّعي الألوهية؛ فعالج هاتين الوضعيتين المتعاكستين معالجة واحدة فساوى بينهما في الأوهام ليصل بالمخاطَب إلى إقامة مبدأ العدل وليعامل هذا الكبير الذي يدعي الألوهية معاملة واحدة لأنّه لا يقلُّ شأنا عنه، فما يتبادر إلى ذهن الصغير العاجز من هواجس يتبادر إلى ذهن الكبير، فالعلاقة بينهما علاقة تبادلية في الهواجس، يرمي (**الكواكبي**) من خلال استعمال حجة التقابل العكسي بينهما إلى تمثيل مفارقة غير مرغوب فيها، تصدم المخاطَب بحدة، فهي تقابل حالة الصغير العاجز بحالة أخرى للكبير المتآله[32] حتى يظهر خطأ التصور لإحداهما التي لا تعدو أنّ تكون مساوية للأخرى، وبالتالي إقناع المخاطَب بكسر حواجز التفاوت وهواجس الأوهام التي تولد الخوف وتشقي الأفراد وتبيان أنهم أكفاء في البنية، أكِّفاء في القوة، أكفاء في الطبيعة، أكفاء في الحاجات وليس بينهم إلا برزخ من الوهم وهو الأمر الذي أراد الكواكبي تفنيده عن أذهان مخاطبيه.

وتمثيل التقابل العكسي في هذا المثال وفق المخطط الآتي التي تمثله الصورة أدناه:

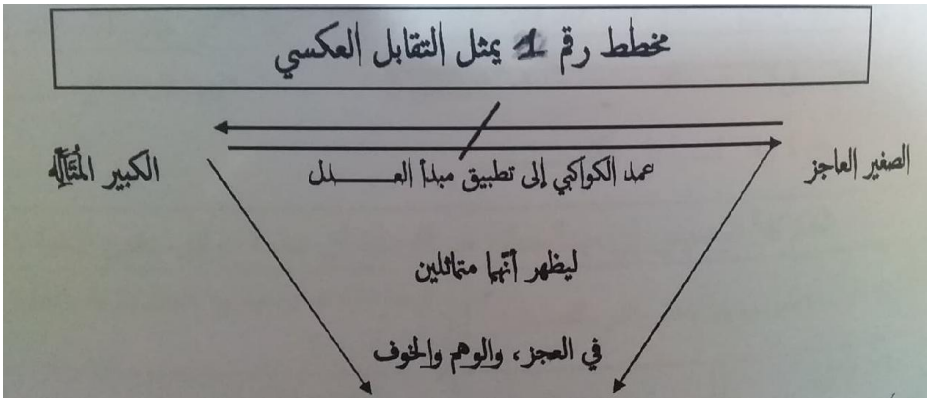

- ✓ **"فإن وفَّيت حقَّ الوكالة حُقَّ لك الاحترام، وإن مكرت مكَرنا وحاقت بك العاقبة"**[33].

يضعنا (**الكواكبي**) في هذا المثال بين علاقتين هما علاقة الرّاعي بحفظ شؤون الرعيّة التي تتطلب من الرعيّة مبادلة هذا الحفظ بالاحترام، وعلاقة مَكّر الرّاعي بشؤون الرعيّة التي يقابلها مكّر الرعيّة به، فسحب عليهما تبعا لذلك الحكم نفسه حين أكدَّ أنّ من وفَّى حق الوكالة حُقَّ له الاحترام، ومن مكر بالوكالة مكرت به الرعيّة، أي من مكَّر بغيره مَكَّر الآخر به " وهو قول في ظاهره مقنع لأنه يحتكم إلى مبدأ منطقي هو التبادلية أي معاملة طرفين متماثلين المعاملة ذاتها"[34]، ليصل المخاطَب إلى المقصود وهو أن الجزاء من جنس العمل.

وهذا النوع من الحجج القائم على العلاقات التبادليّة يكثر استعماله في مواضع من القرآن الكريم من ذلك قوله عزوجل: ((**وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ**))[35].

2- الحجج شبه المنطقية التي تعتمد العلاقات الرياضية:

2-1 إدماج الجزء في الكلّ:

يقوم هذا النمط من الحجج على إدماج الجزء في الكلّ باعتبار أنّ ما ينطبق على الكلّ من أحكام وسمات ينطبق بالضرورة على أجزائه المكوِّنة له؛ "لأن الجزء يعدّ قيمة مناسبة داخل الكلّ، فالحكم الذي يُطلق على هذا الكلّ يمكن سحبه ليُطلق على الجزء، وغاية هذا النوع من الحجج أثناء الحجاج هو توجيه المتلقي واستدراجه إلى المقصود من نتائج الحجاج، فاعتقاد المتلقي بالحُكم الموجَّه إلى الكلّ لا يمنعه من أن يعتقد الجزء منه"[36]

ولتوضيح هذا النوع من الحجج نسوق نماذج من (كتاب طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) فيما يأتي:

- ✓ " **ترتعد فرائص المستبدّ من علوم الحياة مثل الحكمة النظرية والفلسفة العقلية، وحقوق الأمم وطبائع الاجتماع، والسياسة المدنية والتاريخ المفصل، والخطابة الأدبية، ونحو ذلك من العلوم التي تُكبر النفوس، وتوسّع العقول، وتعرف الإنسان ماهي حقوقه وكم هو مغبون فيها وكيف الطلب، وكيف النّوال وكيف الحفظ**"[37].

توضح هذه الحجة خوف المستبدّ من كل علوم الحياة، فالحكمة النظرية، الفلسفة العقلية، وحقوق الأمم، طبائع الاجتماع، السياسة المدنية، التاريخ المفصل والخطابة الأدبية، جزء من تلك العلوم التي وجب على الإنسان تعلمها، فلا يمكن أن يخشى المستبد علوم الحياة ولا يخشى جزء من

أجزائها؛ لأنّ ما ينطبق على الكل ينطبق على الجزء ولا سيما أنها تشترك في وظيفة تكبير النفوس وتوسيع العقول وتعريف الإنسان بكيفية المطالبة بحقوقه؛ وهذا ما يفسر لنا منع المستبد للأجزاء (الروايات والأدب وتشديد الرقابة على الصحف) التي هي جزء من ذلك الكل.

- ✓ "المستبدون يخافون من العلم حتى من علم الناس معنى كلمة (لا إله إلاّ الله) ولماذا كانت أفضل الذكر، ولماذا بُني عليها الإسلام... فيكون معنى لا إله إلا الله: لا يستحق الخضوع شيء غير الله."[38].

يوضح هذا المثال خوف المستبدون من العلم، حتى جزء من ذلك العلم الذي يبين للناس معنى كلمة (لا إله إلاّ الله) وبأنّه لا يستحق الخضوع شيءُ غير الله، لذا وجب على الناس طلب العلم وتعلم هذا المعنى وتكراره على الذاكرة أناء الليل وأطراف النهار تحذرا من الوقوع في ورطة شيء من الخضوع لغير الله وحده، ولا يناسب غرض المستبدين أن يتنور الناس بالعلم وأن يعلم عبيدهم أن لا سيادة ولا عبودية في الإسلام ولا ولاية فيه ولا خضوع إلا لله لذا كانوا ولازالوا من أنصار الشِّرك وأعداء العلم في كل تمظهراته وهذا ما يود (**الكواكبي**) إقناع المخاطَب به.

2-2 تقسيم الكلّ إلى أجزائه المكونة له:

يقوم هذا النوع من الحجج على ذكر الحجة الكليّة ومن ثم تعداد الأجزاء الشاملة المكوّنة لها، وذلك لزيادة قوّتها الحجاجية وتقوية حضورها في ذهن المخاطَب؛ لأنّ الغاية الأساسية من استخدام هذا النوع "حسب بيرلمان هو البرهنة على وجود المجموع ومن ثمّة تقوية الحضور بمعنى إشعار الغير بوجود الشيء موضوع التقسيم من خلال التصريح بوجود أجزائه"[39].

والمتمعن في خطاب (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) يجد أن ّ(الكواكبي)استعمل هذا النوع من الحجج، وتمثيل ذلك وفق الآتي:

- ✓ "**الترقّي الحيوي الذي يجتهد فيه الإنسان بفطرته وهمتّه هو أولاً: الترقّي في الجسم صحّةً وتلذُّذا، ثانياً: الترقّي في القوّة بالعلم والمال، ثالثاً: الترقّي في النفس بالخصال والمفاخر، رابعاً: الترقّي بالعائلة استئناسا وتعاوناً، خامساً: الترقّي بالعشيرة تناصراً عند الطوارئ، سادسا: الترقّي بالإنسانية، وهذا منتهى الترقّي**"[40].

تبرز هذه الحجة إحاطة (**الكواكبي**) بالترقي الحيوي من جميع جوانبه ليقوي حضوره في ذهن المخاطَب من خلال الحديث عن أجزائه المكونّة له فترى (**الكواكبي**) يُجمل القول ثم يقسّمه إلى

أجزائه، الأمر الذي يزيد من قدرة المخاطِب الحجاجية ويبعث الثقة في نفس المخاطَب لأنه لا يجد في خطابه خللا أو نقصا، وبالتالي يذعن له ويبادر إلى الاجتهاد في تحصيل الترقي بكل أجزائه وهو مبتغى (**الكواكبي**) من خطابه.

- ✓ " وينظر إلى انقسام البشر إلى أمم، ثم إلى عائلات، ثم إلى أفراد، وهو من قبيل انقسام الممالك إلى مدن، وهي إلى بيوت، وهي إلى مرافق، وكما أنّه لا بدّ لكلٍّ مرفق من وظيفة معينة يصلح لها وإلا كان بناؤه عبثا يستحق الهدم، كذلك أفراد الإنسان لابّد أن يعدّ كلٌّ منهم نفسه لوظيفة في قيام حياة عائلته أولا، ثم حياة قومه ثانيا. ولهذا يكون العضو الذي لا يصلح لوظيفة، أو لا يقوم بما يصلح له حقيرا مهانًا."[41]

عدد (**الكواكبي**) في هذه الحجة المجالات التي تشهد بانقسام البشر فتراه يجمل القول ثم يقسمه إلى أجزائه؛ موضحا كل حجة كلية بحجة جزئية، ومن ثم تصبح كل حجة جزئية (ح ج) كلية (ح ك) لما يليها، وهذه الأخيرة تتفرع إلى حجج جزئية أخرى لتزيدها قوة وإقناعا بنتيجة الحجاج، وتفصيل ذلك في المخطط الآتي الذي تمثله الصورة أدناه:

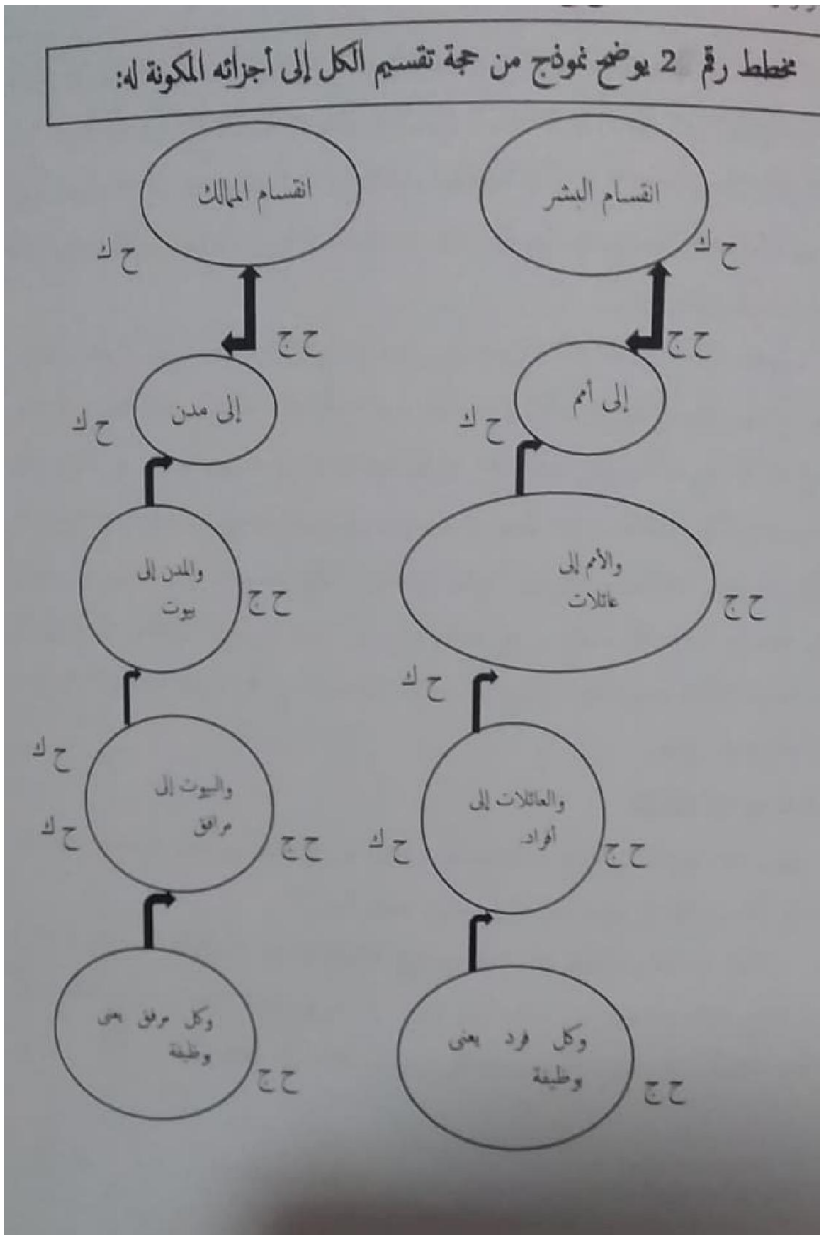

هذه الأجزاء هي التي تضفي على الكل شرعية الوجود والحضور، فكل جزء من هذا المجموع لابد أن يؤدي وظيفة معينة تنعكس على الوظيفة الكلية، وإلا كان وجوده عبثا لا

يغني ولا يسمن من جوع، فتكون نتيجة هذا الحجاج دفع المخاطَب إلى إعداد النفس للقيام بوظيفة تعود عليه وعلى عائلته وأمته بالنفع في سبيل ترقي مجموع البشر.

أفضى بنا تحليل مختلف أنواع الحجج شبه المنطقية في كتاب (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) إلى جملة من النتائج، أهمها:

- ✓ الحجج شبه المنطقية أخذت من المنطق بنيته وقبولها للصياغة المنطقية؛ وافترقت عنه في كونها غير ملزمة أي أنها لا تلزم المرسل إليه بدعوى ونتيجة الحجاج كما هو الحال في الحجج المنطقية التي تجبر المرسل إليه على تقبّل النتيجة.
- ✓ تستمد الحجج شبه المنطقية قوتها الاقناعية من مشابهتها للطرائق الشكلية والمنطقية والرياضية في البرهنة، وهذا ما يمنحها قالبا منطقيا شكليا، تجمع فيه المعطيات وتكيّف، فتجعلها شبيهة باستدلال منطقي صارم، فما يميزها إذن حقيقتها اللاشكلية التي تجتهد في كونها شكلية.
- ✓ يضع (**الكواكبي**) المخاطب بين أمرين متناقضين ليدفعه إلى دحض القضية الخاطئة وتقبل القضية الصحيحة بغية محاربة الفتور في تفكيره ودفعه إلى إعمال الفكر.
- ✓ استعان (**الكواكبي**) بحجة التماثل والحد في الحجاج بغية توضيح المفاهيم للمخاطَب بغرض التوافق معه على أسس مشتركة بهدف إقناعه بشكل أفضل ودفعه إلى تقويم المفاهيم تقويما إيجابيا أو سلبيا.
- ✓ يعالج (**الكواكبي**) بواسطة الحجج القائمة على العلاقات التبادلية الوضعيتين المتعاكستين معالجة واحدة فيساوي بينهما في الأوهام ليصل بالمخاطَب إلى إقامة مبدأ العدل وبالتالي يوجهه إلى استنباط المقصود من الحجاج.
- ✓ حجة إدماج الجزء في الكل تدفع بالمخاطَب إلى التسليم بأنّ الحكم الذي يطلق على الكلّ يمكن سحبه ليطلق على الجزء.
- ✓ تقسيم الكلّ إلى أجزائه المكونة له من شأنه زيادة قوة الحجة وتقوية حضورها في ذهن المخاطَب.

هوامش:

[1] عبد الهادي بن ظافر الشهري، الخطاب الحجاجي عند ابن تيمية، الانتشار العربي، بيروت، لبنان، ط1، 2013، ص 69.

[2] عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، مكتبة مدبولي، القاهرة، 2013، ص 183.

[3] عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم محمد خالد، موفم للنشر، 1991، (مقدمة).

[4] ينظر: المصدر نفسه (مقدمة)

[5] عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 176.

[6] المصدر نفسه، ص 14.

[7] عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم محمد خالد، (مقدمة).

[8] حمدي منصور جودي، الحجاج في كليلة ودمنة لابن المقفع، عمان، ط1، 2018، ص 111.

[9] المرجع نفسه، ص 104.

[10] عبد الله صولة، الحجاج وتقنياته من خلال مصنف في الحجاج – الخطابة الجديدة لبرلمان وتيتيكاه ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، إشراف حمادي صمود، جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية، كلية الآداب منوبة، تونس، مجلد xxxix، 1998، ص 325.

[11] سامية الدريدي، الحجاج من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة، بنيته وأساليبه، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط2، 2011، ص 191.

[12] Reboul(0)Introduction à la rhétorique ;théorie et pratique ; presse ; universitaire de France, 1999 ; p 174.

[13] ينظر: حمدي منصور جودي، الحجاج في كليلة ودمنة، ص 112، وينظر: محمد سالم محمد الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة، بحث في بلاغة النقد المعاصر، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، 2008م، ص 128.

[14] عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 162.

[15] المصدر نفسه، ص 132.

[16] سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه، ص 200.

[17] المرجع نفسه، ص 200.

[18] حمدي منصور جودي، الحجاج في كليلة ودمنة لابن المقفع، ص 113.

[19] فضيلة قوتال، حجاجية الشروح البلاغية وأبعادها التداولية، دار كنوز المعرفة، عمان، الأردن، ط1، 2017، ص 66.

[20] المرجع نفسه، ص 67.

[21] عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 59.

[22] المصدر نفسه، ص 62.

[23] حمدي منصور جودي، الحجاج في كليلة ودمنة لابن المقفع، ص 193.

[24] عبد الله صولة، في نظرية الحجاج، دراسات وتطبيقات، مسكيلياني للنشر والتوزيع، تونس، ط1، 2011، ص 45.

[25] عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 71.

[26] المصدر نفسه، ص 71.

[27] المصدر نفسه، ص 72.

[28] المصدر نفسه، ص 61.

[29] حمدي منصور جودي، الحجاج في كليلة ودمنة لابن المقفع، ص 195.

[30] عبد الله صولة، الحجاج أطره ومنطلقاته وتقنياته، ص 328.

[31] عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 134.

[32] ينظر: فضيلة قوتال، حجاجية الشروح البلاغية وأبعادها التداولية، ص 106.

[33] عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 69.

[34] سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه، ص 202.

[35] سورة هود، الآية 38، هذا المثال ورد في كتاب عبد الله صولة، الحجاج أطره ومنطلقاته وتقنياته، ص 329.

[36] حمدي منصور جودي، الحجاج في كليلة ودمنة لابن المقفع، ص 329.

[37] عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 52.

[38] المصدر نفسه، ص 57.

[39] عبد الله صولة، الحجاج أطره ومنطلقاته، ص 311.

[40] عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 134.

[41] المصدر نفسه، ص 148.